أبو حنيفة ولكن بغير فقه(١)

قد انتهينا في الأدب إلى نهايةٍ صحافيَّةٍ عجيبةٍ ، فأصبح كلُّ مَنْ يكتب ؛ يُنشر له ، وكلُّ من يُنشر له ؛ يعدُّ نفسه أديباً ، وكلُّ من عَدَّ نفسه أديباً ؛ جاز له أن يكونَ صاحبَ مذهبٍ ، وأن يقول له في مذهبه ، ويردُّ على مذهب غيره .

فعندنا اليوم كلماتٌ ضخمةٌ تدور في الصُّحف بين الأدباء ، كما تدور أسماء المستعمرات بين السِّياسيِّين المتنازعين عليها، يتعلَّق بها الطَّمع، وتنبعث لها الفتنة، وتكون فيها الخصومة، والعداوة، منها قولهم: أدب الشُّيوخ وأدب الشَّباب، ودكتاتوريَّة الأدب وديمقراطيَّة الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والجمود والتَّحوُّل، والقديم والجديد، ثمَّ ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب؟

وراء ذلك : أنَّ منهم أبا حنيفة ولكن من غير فقهٍ ، والشَّافعيُّ ولكن بغير اجتهادٍ ، ومالكٌ ولكن بغير روايةٍ ، وابن حنبلٍ ولكن بغير حديث ، أسماء بينها وبين العمل أنَّها كذب عليه ، وأنَّها ردٌّ عليها .

وليس يكون الأدب أدباً إلا إذا ذهب يستحدث ، ويخترع على ما يصرفه النَّوابغ من أهله حتَّى يؤرَّخ بهم ، فيقال : أدب فلانٍ ، وطريقة فلانٍ ، ومذهب فلانٍ ؛ إذ لا يجري الأمر فيما علا ، وتوسَّط ، ونزل إلا على إبداعٍ غير تقليدٍ ، وتقليدٍ غير اتِّباعٍ ، واتِّباع غير تسليمٍ ؛ فلا بدَّ من الرَّأي ، ونبوغ الرَّأي ، واستقلال الرَّأي حتَّى يكون في الكتابة إنسانٌ جالس هو كاتبها ، كما أنَّ الحيَّ الجالس في كلِّ حيٍّ هو مجموعه العصبيُّ ، فيخرج ضربٌ من الآداب ، كأنَّه نوعٌ من التَّحوُّل في الوجود الإنسانيِّ ، يرجع بالحياة إلى ذرَّات معانيها ، ثُمَّ يرسمُ من هذه المعاني مثل ما أبدعت ذرَّات الخليقة في تركيبٍ من تركيبٍ ، فلا يكون للأديب تعريفٌ إلا أنَّه المقلِّد الإلٰهيُّ(٢) .

وإذا اعتبرنا هذا الأصل ؛ فهل يبدأ الأدب العربيُّ في عصرنا ، أو ينتهي ، وهل تراه يعلو ، أو ينزل ، وهل يستجمع ، أو ينفضّ ، وهل هو من قديمه الصَّريح بعيدٌ

---

(١) وهذا فصل من المعركة الأخيرة بينه وبين زكي مبارك . (ع) .

(٢) استوفينا هذه المعاني في مقالة : « الأدب والأديب » . (ع) .

من بعيدٍ ، أو قريبٌ من قريبٍ ، أو هو في مكانٍ بينهما ؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصِّلها لاقتحمت تاريخاً طويلاً أمرُّ فيه بعظامٍ مبعثرةٍ في ثيابها ، لا في قبورها . . ولكنِّي موجِزٌ مقتصرٌ على معنىً ، هو جمهور هذه الأطراف كلِّها ، وإليه وحدَه يرجع ما نحن فيه من التَّعادي بين الأذواق ، والإسفاف بمنازع الرَّأي ، والخلط ، والاضطراب في كلِّ ذلك ، حتَّى أصبح أمرُ الأدب على أقبحه ، وهم يرونه على أحسنه ، وحتَّى قيل في الأسلوب : أسلوبٌ تلغرافيٌّ ، وفي الفصاحة : فصاحةٌ عاميَّةٌ ، وفي اللُّغة : لغة الجرائد ، وفي الشِّعر : شعر المقالة ، ونجمت النَّاجمة من كل علَّةٍ ، ويُزيِّن لهم : أنَّها القوَّة قد استحصفت ، واشتدَّت ، ونازع الأدب العربيُّ إلى سخريَّة التَّقليد ، وإلى أن يكون لصيقاً دَعِيّاً في آداب الأمم ، واستهلكه التَّضييع ، وسوءُ النَّظر له على حين يؤتى لهم : أنَّ كلَّ ذلك من حفظه ، وصيانته ، وحسن الصَّنيع فيه ، ومن توفير المادَّة عليه .

أين تصيب العلَّة إذا التمستها ؟ أفي الأدب من لغته ، وأساليب لغته ، ومعانيه ، وأغراض معانيه ؟ أم في القائمين عليه في مذاهبهم ، ومناحيهم ، وما ينفق من أسبابهم ، وجواذبهم ؟

إن تقُل : إنَّها في اللُّغة ، والأساليب ، والمعاني ، والأغراض ، فهذه كلُّها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلَّد البليَّة من كلِّ من يعمل فيها ، وقد استوعبت ، واتَّسعت ، ومادَّت العصور الكثيرة إلى عهدنا ، فلن تؤت من ضيقٍ ، ولا جمودٍ ، ولا ضعفٍ ، ثمَّ هي مادَّةٌ ، ولا عليها ممَّن لا يحسن أن يضع يده منها حيث يملأ كفَّه ، أو حيث تقع يده على حاجته .

وإن قلت : إنَّ العلَّة في الأدباء ، ومذاهبهم ، ومناحيهم ، ودواعيهم ، وأسبابهم ؛ سألناك : وَلِمَ قصَّروا عن الغاية ، ولِمَ وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر ، وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصَّحيح في كتبه مقام أمَّةٍ من أهله أعراباً ، وفصحاء ، وكتَّاباً ، وشعراء ، ومع انفساح الأفق العقليِّ في هذا الدَّهر ، واجتماعه من أطرافه لمن شاء ، حتَّى لتجد عقول نوابغ القارَّات الخمس تُحتقبَ في حقيبةٍ من الكتب ، أو تُصَنْدَق[1] في صندوقٍ من الأسفار ؟

---

(١) كلمة وضعناها على قياس « تُحتقب » . (ع) .

كيف ذهب الأدباء في هذه العربيَّة نشراً متبدِّدين ، تعلو بهم الدَّائرة ، وتهبط ، فكلٌّ أعلى ، وكلٌّ أسفل ؟ هذا فلانٌ شاعر قد أحاط بالشِّعر عربيِّهِ وغربيِّهِ ، وهو ينظمه ، ويفتنُّ في أغراضه ، ويولِّد ، ويسرق ، وينسخ ، ويمسخ ، وهو عند نفسه الشَّاعر الَّذي فقدته كلُّ أمَّةٍ من تاريخِها ، ووقع في تاريخ العربيَّة وحدها ابتلاءً ، ومحنةً ، وهو ككلِّ هؤلاء المغرورين يحسبون : أنَّهم لو كانوا في لغاتٍ غير العربيَّة ؛ لظهروا نجوماً ، ولكنَّ العربيَّة جعلت كلاً منهم حصاةً بين الحصى ، وتقرأ شعره ، فإذا هو شعرٌ تتوهَّم من قراءته تقطيع ثيابك ؛ إذ تجاذب نفسك ؛ لتفرَّ منه فراراً .

وهذا فلانٌ الكاتب الَّذي ، والَّذي والَّذي يرتفع إلى أقصى السَّموات على جناحَيْ ذبابةٍ .

وهذا فرعون الأدب الَّذي يقول : أنا ربُّكم الأعلى ! وهذا فلانٌ وهذا فلانٌ . . .

أين يكون الزِّمام على هؤلاء ، وأمثالهم ، ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وليضبطوا آراءهم ، وهواجسهم ، وليعلموا : أنَّ حسابهم عند النَّاس لا عند أنفسهم ، فالواحدة منهم واحدةٌ وإن توهَّموا مئةً ، وتوهَّمها بعضهم ألفاً ، أو ألفين ، ومتى قال النَّاس : غلطوا ؛ فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخفاء ؛ فهم سخفاء .

وأين الزِّمام عليهم ، وقد انطلقوا كأنَّهم مسخَّرون بالجبر على قانونٍ من التَّدمير ، والتَّخريب ، فليس فيهم إلا طبيعةٌ مكابرةٌ لا إقرار منها ، باغيةٌ لا إنصاف معها ، نافرةٌ لا مساغَ إليها ، متَّهمةٌ لا ثقة بها ، طبيعةٌ يتحوَّل كلُّ شيءٍ فيها إلى أثرٍ منها كما يتحوَّل ماءُ الشَّجر في العود الرَّطب المشتعل إلى دخانٍ أسود ! .

* * *

يرجع هذا الخلط في رأيي إلى سببٍ واحدٍ : هو خلوُّ العصر من إمامٍ بالمعنى الحقيقيِّ ، يلتقي عليه الإجماع ، ويكون ملء الدَّهر في حكمته ، وعقله ، ورأيه ، ولسانه ، ومناقبه ، وشمائله ، فإنَّ مثل هذا الإمام يُخصُّ دائماً بالإرادة الَّتي ليس لها إلا النَّصر ، والغلبة ، والَّتي تعطَى القوَّة على قتل الصَّغائر ، والسَّفاسف ، وهو إذا

ألقي في الميزان عند اختلاف الرَّأي ؛ وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره ، والمعجبين بآدابه ، وبالسَّواد الغالب من كلِّ الفاعليَّات المحيطة به ، والمنجذبة إليه ؛ ومن ثمَّ تتهيَّأ قوَّة التَّرجيح ، ويتعيَّن اليقين ، والشَّكُّ ؛ والميزان اليوم فارغٌ من هذه القوَّة ، فلا يرجِّح ، ولا يعيِّن .

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو المنطق الإنسانيُّ في أكثر الخلاف الإنسانيِّ : تقوم به الحجَّة ، فتلزم ؛ وإن أنكرها المنكِرُ ، وتمضي ؛ وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها ؛ وإن أصرَّ المصِرُّ على غيرها ؛ لأنَّ بالإجماع على القياس يبين التَّطرُّف في الزِّيادة ، أو التَّقصير ، والإجماع إذا ضَرَب ضرب المعصية بالطَّاعة ، والزَّيغَ بالاستقامة ، والعنادَ بالتَّسليم ، فيخرج من يخرج ، وعليه وَسمُه ، ويزيغ مَنْ يزيغُ ، وفيه صفته ، ويصرُّ المكابر ، واسمه المكابر ليس غير ، وإن هو تكذَّب وتأوَّل ، وإن زعم ما هو زاعم .

ولكلِّ القواعد شواذُّ ، ولكنَّ القاعدة هي إمام بابها ؛ فما من شاذٍّ يحسب نفسَه منطلقاً مخلًّى ، إلا هو محدودٌ بها ، مردودٌ إليها ، متَّصلٌ من أوسع جهاته بأضيق جهاته ؛ حتَّى ما يعرف : أنَّه شاذٌّ إلا بما تعرف به : أنَّها قاعدةٌ ، فيكون شأنه في نفسه بما تُعيِّن هي له على مَكرَهتهِ ، ومحبَّته .

والإمام ينبتُ في آداب عصره فكراً ، ورأياً ، ويزيد فيها قوَّةً ، وإبداعاً ، ويزيِّن ماضيها بأنَّه في نهايته ، ومستقبلها بأنَّه في بدايته ، فيكون كالتَّعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهةٍ أخرى ؛ لأنَّ هذا الإمام إنَّما يختار لإظهار قوَّة الوجود الإنسانيِّ من بعض وجوهها ، وإثبات شمولها ، وإحاطتها كأنَّه آيةٌ من آيات الجنس ، يأنسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقَّى منه حكم التَّمام على النَّقص ، وحكم القوَّة على الضَّعف ، وحكم المأمول على الواقع ، ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة الَّتي لا يكابر عندها متنطِّع بتأويلٍ ، وفي القوَّة الَّتي لا يخالف عندها مُبْطلٌ بعنادٍ ، وفي الشَّريعة الَّتي لا يروغ منها متعسِّفٌ بحيلةٍ ، ولن يضلَّ النَّاس في حقٍّ عرفوا حدَّه ، فإنَّ ما وراء الحدِّ هو التَّعدِّي ؛ ولن يخطئوا في حكمٍ أصابوا وجهه ، فإنَّ ما عدا الوجه هو الخلاف ، والمراءُ .

وقد طُبع النَّاس في باب القدوة على غريزة لا تتحوَّل ؛ فمن انفراد بالكمال كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السَّمْت ؛ ولا بدَّ لهم ممَّن يقتاسون به ، ويتوازنون

فيه ، حتَّى يستقيموا على مراشدهم ، ومصالحهم ، فالإمام كأنَّه ميزانٌ من عقلٍ ، فهو يتسلَّط في الحكم على النَّاقص والوافي من كلِّ ما هو بسبيله ، ثمَّ لا خلاف عليه ؛ إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزنٍ ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلةً بعد منزلةٍ .

هو إنسانٌ تتخيَّر بعض المعاني السَّامية ؛ لتظهر فيه بأسلوبٍ عمليٍّ ، فيكون في قومه ضرباً من التَّربية والتَّعليم بقاعدةٍ منتزعةٍ من مثالها ، مشروحةٍ بهذا المثال نفسه ، فإليه يُرَدُّ الأمر في ذلك وبتلوه يُتلى ، وعلى سبيله يُنهج ، فما من شيءٍ يتَّصل بالفنِّ ، الذي هو إمامٌ فيه إلا كان فيه شيءٌ منه ، وهو من ذلك متَّصلٌ بقوى النُّفوس كأنَّه هدايةٌ فيها ؛ لأنَّه بفنِّه حكمٌ عليها ، فيكون قوَّة ، وتنبيهاً ، وتسهيلاً ، وإيضاحاً ، وإبلاغاً ، وهدايةً ؛ ويكون رجلاً ، وإنَّه لمعانٍ كثيرةٍ ، ويكون في نفسه ، وإنَّه لفي الأنفس كلِّها ، ويُعطَى من إجلال النَّاس ما يكون به اسمه كأنَّه خَلْقٌ من الحبِّ ، طريقه على العقل ، لا على القلب .

ولعلَّ ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ، ووجوب ذلك على المسلمين ؛ فلا بدَّ على هذه الأرض من ضوءٍ في لحمٍ ودمٍ ، وبعض معاني الخليفة في تنصيبه ، كبعض معاني « الشَّهيد المجهول » في الأمم المحاربة المنتصرة المتمدِّنة : رمز التَّقديس ، ومعنى المفاداة ، وصمتٌ يتكلَّم ، ومكانٌ يوحِي ، وقوَّةٌ تُستَمَدُّ ، وانفرادٌ يجمع ؛ وحكم الوطنيَّة على أهلها بأحكام كثيرةٍ في شرف الحياة والموت ؛ بل الحرب مخبوءةٌ في حفرةٍ ، والنَّصر مُغَمًّى بقبرٍ ؛ بل المجهول الذي فيه كلُّ ما ينبغي أن يعلم .

* * *

فعصرنا هذا مضطربٌ مختلٌّ ؛ إذ لا إمام فيه يجتمع النَّاس عليه ، وإذ كلُّ من يزعُم نفسه إماماً هو مِنْ بعض جهاته كأنَّه أبو حنيفة ، ولكن بغير فقهٍ !

ولعمري ! ما نشأ قولهم : « الجديد ، والقديم » إلا لأنَّ ها هنا موضعاً خالياً يُظهر خلاؤه مكانَ الفصل بين النَّاحيتين ، ويجعل جهةً تنماز من جهةٍ . فمنذ مات الإمام الكبير الشَّيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ جرت أحداثٌ ، ونتأت رؤوسٌ ، وزاغت طبائع ، وكأنَّه لم يمت رجلٌ ، بل رُفع قرآنٌ .

* * *